سجع الكهان(المفهوم، ونماذج لبعض الكهان)

تمهيد :

أ – السجع الجاهلي رؤى وأبعاد:

هو فن من فنون النثر يعتمد مجموعة من الجمل المترادفة والمتوازنة والمتزاوجة يستخدمها الكاهن الذي يدعي معرفة الغيب في قضية من القضايا التي تعترض فردا أو جماعة ويزعم هذا الكاهن أنه ينطق باسم الآلهة، وأن الجن مسخرة له يحركها كيفما أراد، وكانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب، وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمى كاهنًا كما يسمى تابعه الذي يوحي إليه باسم "الرَّئِيّ" وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم؛ فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجؤون إليهم في كل شؤونهم، وقد يتخذونهم حكامًا في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس، واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفر هاشمًا على أمية. وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شؤونهم كوفاء زوجة، أو قتل رجل، أو نحر ناقة، أو قعود عن نصرة أحلاف، أو نهوض لحرب؛ ففي أخبار بني أسد أن حجرًا أبا امرئ القيس رَقَّ لهم؛ فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: "يا عبادي، قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلَّاب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الرَّبْرب، لا يعلق رأسه الصَّخَب، هذا دمه ينثعب، وهذا غدًا أولُ من يسلب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذَلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عكر حجر فهجموا على قبته" وقتلوه. وكثيرًا ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر، كما كانوا كثيرًا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم، فمنزلة هؤلاء الكهنة في الجاهلية كانت كبيرة؛ إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها،

ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة. ومما يلاحظ أنهم كانوا يتكثرون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب، وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم، وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صورًا خيالية؛ حتى أنهم خصوهم بكلام خاص أسموه سجع الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم؛ فقرنوه بسجع كهنتهم ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جل وعز: {وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} وقال سبحانه وتعالى: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ} وقال:{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلا

بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}. ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون؛ بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث المروي عن أبي هريرة؛ فقد حدث أنه: "اقتتلت امرأتان من هذيل؛ فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غرة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها... فقال حمل بن النابغة الهُذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل؛ فقال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: "إنما هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذي سجع ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل. وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم؛ فإنه يلاحظ عليه أيضًا كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحًا خفية، ومن أجل ذلك يحلفون بها، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين. وسجعهم في جمل قصيرة، وغير واضحة المعنى، لكي تتحير الأذهان في فهم المقصود منها وأغلب الظن، بل يكاد يكون من المؤكد أنهم لم يكونوا يدركون حقيقة ما يقولون فكانوا يأتون بالألفاظ. ويرصفونها بعضها بجانب بعض بدون وعي تام لمعانيها، ما دام السجع موجودا فيها، ويكتنفها الغموض والإبهام، مكتفين بالإيماء والتلميح، متخذين من حال مخاطبيهم النفسية ما يساعدهم على ذلك، كما يفعل ضاربو الرمل والحصى بيننا الآن.

ب – أشهر الأسجاع في الجاهلية:

وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم، وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صورًا خيالية؛ فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق، وربما كان أحدب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدَّوْسيّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب، وخُنافر الحميري، وكان يقول: إنه أسلم بمشورة تابعه "شصار". وأكهنهم عُزّى سَلِمة، يقول الجاحظ: "أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حية وهو الذي يقال له عزى سلمة". ومن قوله: "والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشراء للمجد والسناء" ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كن في الأصل من النساء اللائي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها. ومن أشهرها الشعثاء وكاهنة ذي الخلصة والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء كاهنة بني رئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو خَنْلًا، ويحرق أنيابًا عصلًا، وإن صخر الطود لينذر ثكلًا، لا تجدون عنه مَعْلًا".ومن أشهر

المتكهنين في الجاهلية : سطيح الذئبي،والمأمور الحارثي، وخنافر الحميري،و عوف بن ربيعة الأسدي، ومسلمة الخزاعي . وشق الأنماري، وسلمة بن أبي حيّة، المشهور باسم عُزّى سلمة، وعوف الأسدي، .بل كان فيهم نساء كاهنات أيضاً، من أمثال: فاطمة الخثعمية، وطريفة اليمينية، وزبراء.

ويقول الجاحظ: "كان حازى "كاهن" جهينة وشق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع."

ج – موقف العرب من الكهان:

والكهّان عند العرب الجاهليين طائفة ذات قداسة دينية، وسلطان كبير لدى القبائل، شأنهم شأن الحكام في المنافرات. وكانوا يزعمون الاطلاع على الغيب، من خلال رئيه – أي صاحبه من الجن – ويعرف الكاهن عن طريقه ما سيكون من أمور. وكان الناس يتوافدون على هؤلاء الكُهّان من مختلف الجهات فيحكمونهم في منازعاتهم، ويستشيرونهم في أمورهم الخاصة وما يزمعونه من أعمال، أو ما يرونه في منامهم من أحلام. وكانوا يستخدمون في أحكامهم وأقوالهم ضرباً من النثر المسجوع عرفوا به، ويلاحظ في نصوص الكهان أنها تحمل طابع التكلف الشديد في سجعها ولهذا لا يطمأن إليها كلها، فربما شاب بعضها الوضع والنحل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، لقصره وإيجازه.

لم يكن الكهان مقبولين لدى عامة الناس بل كانوا مصدر خوف وهاجس بالنسبة إليهم وهذا يفسر كيف تخيل الناس صورا مشوهة عنهم فقد كانوا يقولون عن سطيح الذئبي ان وجهه في صدره ويقولون عن شق بن مصعب انه نصف إنسان أو شطر منه ... الخ، وهذه الأشكال الأسطورية التي منحها الناس لهم تدل على مبلغ خوف المجتمع الجاهلي منهم.

د – خصائص أسجاع الكهان:

ومن خصائص أسجاع الكهان أنها – في جملتها – كلام عام، لا يرشد السامع إلى حقائق جلية، وإنما يضعه في الغموض والإبهام، باصطناع السجع، والإيماء، وقصر الجمل لإلهاء السامع عن تتبع ما يلقى إليه من الأخبار العربية، وجعله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، بكل سهولة ويسر، ويكون المخاطب، بتلك الإشارات الغامضة، والألفاظ المبهمة، والأقسام المؤكدة، والأسجاع المنمقة، مستعداً لقبول كل ما يقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه.

تعمد الكهان الاغراق في التعمية على مقولاتهم واضفاء صيغ رمزية غير مفهومة عليها تحتمل التأويل لو حدث عكس ما تنبؤوا به حتى تميزوا بلون خاص من القول المسجوع المترادف القصير العبارة

ذي النبرة الخطابية، ولو صح قليل مما وصلنا من النصوص المنسوبة اليهم لتبين أنهم كانوا يعنون في رموزهم بالكواكب والرياح والغيم والبرق واستخدموها احيانا في القسم فمنهم من كانوا يعبد الكواكب السيارة ومنهم من كان يعبد الشجر او الطير، فكان القسم بهذه الاشياء يمنح النص نوعا من التوكيد او الموثوقية او الرعب . قال عزى سلمة الذي وصفه الجاحظ بأنه أشجع الكهان : والأرض والسماء، والعُقَاب والصَّقْعاء، واقعة بِبَقعاء، لقد نَفَّر المجدُ بني العُشَراء للمجد والثَّناء.

وقالت إحدى الكاهنات تحذر قومها من غارة قادمة عليهم : واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزْن الوادق، إنّ شجر الوادي ليأدوا خَتْلاً، ويحرق أنياباً عُصْلاً. وإن صخر الطَّوْد ليُنذر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلىً.

وهكذا جاء هذا السجع نوعا من الأدب غير المفهوم وغير المترابط يحمل ايجاز العبارة ورمزية المعنى ولا يمكن الاطمئنان إلى صحة ما ورد إلينا منه، ولكنه على العموم لم يصمد أمام الشعر ولم يستطع منافسته في ضمائر الناس.

وادعى غير واحد من الكهان الالوهية في قومه، وقال احدهم لعشيرته: مِن الملِك الأصهب، الغلَّاب غير المُغَلَّب، في الإبل كأنها الرَبْرَب.

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم؛ فإنه يلاحظ عليه أيضًا كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحًا خفية، ومن أجل ذلك يحلفون بها، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين.

وهذا السجع الديني كان يقابله، كما قدمنا، سجع آخر في خطابتهم بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم. ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم؛ فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء.

هـ – موقف القرآن الكريم من الكهان: ذم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الذهاب إلى الكهان ونفى القرآن الكريم صفة الكهانة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

والأثر القرآني واضح لا ريب فيه، فمن أين لهم معرفة بيوم العقاب والحساب والنشور والبعث والسماء المرفوعة، ولا يدل ذلك إلا على تأثر الوضّاعين الحاقدين على الإسلام بالنص القرآني واختراعهم لهذه النصوص لإثبات أن القرآن تقليد لسجع الكهان وأن محمدا ليس صاحب رسالة، ويعتقد أن هؤلاء قد

نشطوا في العصر العباسي الأول حيث بلغ التدوين والوراقة مبلغا من التطور كان يسمح بنسخ النصوص المنحولة ونشرها بين الناس.

أما أن القرآن يستخدم السجع في عباراته فهذا لا يعيب القرآن ولا يقدم دليلا أنه تقليد لسجع الكهان فلم يقتصر استخدام السجع على الكهان وحدهم بل عمد خطباء العصر الجاهلي ـ وحتى الشعراء منهم ـ إلى الكلام المسجوع لما فيه من الإيجاز وإصابة المعنى والتأثير في نفس المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين بلغة يفهمها أهل العصر وقريبة إلى قلوبهم .